العرب
الأربعاء 2019/07/10
السنة 42 العدد 11403

إنها إسطنبول وليست حلب

«بدهم يقتلوكم».. تركيا لم تعد ملجأ آمنا للسوريين

سياسات النظام التركي تغذي مشاعر العنصرية ضد اللاجئين

لم تعد إسطنبول، وغيرها من المدن التركية، مكانا آمنا بالنسبة للاجئين السوريين، الذين وجدوا أنفسهم يدفعون ثمن سياسة النظام في بلادهم وثمن سياسة الرئيس التركي رجب طيب أردوغان، الذي حولهم إلى ورقة مساومة مع الاتحاد الأوروبي. لكن النظام التركي فقد قوته، ولم تعد ورقة اللاجئين تبيض ذهبا، وأصبحوا اليوم محل تهديد دائم من الأتراك الذين حولوا اللاجئين إلى ورقة ضغط على نظام حزب العدالة والتنمية، واتهموهم بأنهم صاروا مصدر إزعاج وباتوا يزاحمونهم في وظائفهم ومساكنهم ومدارسهم وجامعاتهم ويؤثرون عليهم على مختلف الأصعدة، حتى وصل الأمر إلى العنف والتهديد بالقتل.

سارة دعدوش

إسطنبول – في الساعة الثانية من صباح أحد أيام السبت كان الشقيقان السوريان مصطفى وأحمد يحدقان من منزلهما في شاشة تعرض بثا مباشرا من كاميرات مراقبة تظهر رجالا يدمرون متجرهما للملابس الجاهزة.

شاهد الاثنان مجموعة من الرجال الأتراك يهشمون زجاج واجهة المتجر ويمزقون أوراق الدعاية واللافتات المكتوبة باللغة العربية ويضرمون فيها النار. حدق بعض الرجال في الكاميرا قبل أن يهشموها فاسودت الشاشة أمام أعينهما.

اتصل مصطفى (22 عاما) وأحمد (21 عاما) وهما في حالة ثورة برجل تركي يملك متجر البقالة المجاور لمتجرهما لإبلاغه بأنهما في طريقهما إلى المتجر لمنع الحريق من التهام كل ما فيه. وقال أحمد "قالنا ما تجوا (قال لنا لا تأتوا). سيقتلونكم".

واضطر مصطفى وأحمد إلى الانتظار حتى انفض الناس ثم عادا إلى المتجر مع حوالي الساعة الخامسة فجرا.

> شرطة إسطنبول ألقت القبض على خمسة مشتبه بهم على صلة بحسابات استخدمت وسم «ارحلوا أيها السوريون» ووسم «لا أريد سوريين في بلدي»

استهدف متجر الشقيقين السوريين، وغيره من ممتلكات السوريين في حي كوتشوك سيكميجي في غرب إسطنبول، ليلة 29 يونيو في واحدة من نوبات العنف التي يقول السوريون إنها تندلع ضدهم من حين لآخر في أكبر مدينة تركية. ومثل هذه الأحداث واسعة النطاق نادرة الحدوث باستثناء هجوم واحد آخر كبير وقع هذا العام في غرب إسطنبول كذلك في فبراير.

لكن السوريين يتداولون وقائع صغيرة على مواقع التواصل الاجتماعي ويخشى البعض تصاعد التوترات.

خلال الهجوم في حي كوتشوك سيكميجي، استخدمت الشرطة الغاز المسيل للدموع ومدافع المياه لتفريق المهاجمين لكنهم كانوا قد دمروا بالفعل الكثير من المتاجر السورية في الحي ومزقوا اللافتات المكتوبة باللغة العربية.

وتضم المنطقة واحدا من أبرز تجمعات السوريين الكبيرة في المدينة واللافتات المكتوبة باللغة العربية شائعة وسط الزبائن السوريين في الحي.

اخرجوا أيها السوريون

تستضيف تركيا أكثر من 3.6 ملايين سوري وهو أكبر عدد من النازحين السوريين بسبب الحرب الأهلية المستمرة منذ ثماني سنوات.

وتضم محافظة إسطنبول وحدها أكثر من نصف مليون سوري، وفقا لوزارة الداخلية التركية.

وأثار التباطؤ الاقتصادي وارتفاع معدلات البطالة في تركيا الغضب تجاه السوريين الذين ينظر الأتراك إلى الكثيرين منهم باعتبارهم عمالة رخيصة تستولي على الوظائف وتستفيد من الخدمات العامة.

ودفع ذلك حكومة الرئيس رجب طيب أردوغان –التي فتحت حدودها أمام السوريين عندما اشتعلت الحرب في –2011 إلى المزيد من التركيز على إلقاء الضوء على أعداد السوريين الذين تقول الحكومة إنهم عادوا إلى مناطق في شمال سوريا تسيطر عليها حاليا قوات تركية ومعارضون سوريون متحالفون معها.

وذكرت وكالة الأناضول التركية الرسمية للأنباء الأسبوع الماضي أن نحو 80 ألف سوري عادوا في النصف الأول من 2019. ولا يمثل هذا العدد سوى نسبة ضئيلة من أعداد اللاجئين السوريين في تركيا الذين يأمل الكثيرون منهم في بدء حياة جديدة هناك.

وانتقد الخصوم السياسيون أردوغان على سماحه بدخول هذا العدد الكبير من اللاجئين. وحتى أكرم إمام أوغلو رئيس بلدية إسطنبول الجديد المعارض، الذي خاض الانتخابات المحلية داعيا إلى دمج اللاجئين في المجتمع، قال إن الأتراك يعانون من تدفق السوريين على البلاد.

وقال إمام أوغلو "سنبذل الجهد من أجل إيجاد أسس لعودة المهاجرين السوريين إلى ديارهم... وإلا ستكون لدينا بعض المخاوف الأمنية التي ستزعجنا جميعا وستقع اشتباكات في الشوارع". وليلة فوز إمام أوغلو في الانتخابات انتشر وسم (هاشتاغ) على مواقع التواصل الاجتماعي باسم "أخرجوا أيها السوريون".

أبواب وكاميرات مهشمة

يوم 30 يونيو 2019، على مسافة بضعة شوارع من متجر مصطفى وأحمد سمع سوريان يعمل أحدهما في متجر للذهب والآخر في متجر للأجهزة الإلكترونية بأن مجموعة من الناس تهاجم متاجر السوريين.

وقال أحد العاملين في متجر الإلكترونيات بعد بضعة أيام من الواقعة "جمعنا أغراضنا بسرعة وذهبنا".

وحطم المهاجمون واجهة متجر الذهب على الرغم من إغلاق الأبواب المعدنية. كما حطموا لافتات وكاميرات وفوانيس إضاءة متجر الإلكترونيات. وبعد عدة أيام ظلت اللافتات محطمة.

ويعتزم أصحاب المتاجر وضع لافتات جديدة باللغة التركية لحماية أنفسهم ولأن رئيس بلدية إسطنبول أعلن الأسبوع الماضي أن المتاجر يجب أن تضمّ نسبة 75 بالمئة على الأقل من اللافتات باللغة التركية وليست باللغة العربية.

وبعد هجوم كوتشوك سيكميجي قالت إدارة شرطة إسطنبول إنها ألقت القبض على خمسة مشتبه بهم على صلة بحسابات في مواقع التواصل الاجتماعي استخدمت وسم "ارحلوا أيها السوريون" ووسم "لا أريد سوريين في بلدي". وقالت الشرطة كذلك إن تحقيقا أظهر أن مجموعة على تطبيق للرسائل تضم 58 عضوا هي المسؤولة عن التحريض على الاشتباكات في كوتشوك سيكميجي اعتقلت الشرطة 11 منهم وما زال التحقيق مستمرا. وأبدى السوريون ارتياحا تجاه أداء الشرطة.

وقال أغلب أصحاب المتاجر إنهم يأملون ألا تسوء الأمور وأن تهدأ التوترات بعد تغيير لافتاتهم إلى اللغة التركية. لكن المراقبين لا يتوقعون ذلك، خاصة في ظل التراجع الكبير الذي يسجله الرئيس التركي رجب طيب أردوغان وحزب العدالة والتنمية، اللذان يحمّلهما الأتراك أزمة الوضع الاقتصادي المتردي والضغط الذي يمارسه اللاجئون السوريون على كامل مظاهر الحياة في تركيا.

لا يؤثر الوجود السوري على الاقتصاد فقط، بل أيضا أصبح الكثير من الأتراك يتذمرون من تغييرات ديمغرافية بدأت تطل برأسها في أحياء إسطنبول ومدن تركية أخرى تتواجد فيها أعداد كبيرة من اللاجئين السوريين. ويتحدث باللهجة الغاضبة ذاتها مختلف الأتراك حتى البعض من أنصار حزب العدالة والتنمية، ويبدو أن هذه الأزمة من بين الأسباب التي أدت إلى خسارة حزب العدالة والتنمية في الانتخابات البلدية الأخيرة.

ففي تصريحات تعود إلى سنة 2018، نقلت فاينانشيال تايمز عن المواطن التركي شكيب أويار قوله إنه صوّت لصالح أردوغان في الانتخابات التركية، لكنه غاضب على الرئيس وقال إنه لن يصوت له مرة أخرى. فقد سئم من رؤية أعداد اللاجئين السوريين تتزايد في منطقة ألتن داغ في أنقرة.

ووصف أوبار المنطقة بأنها "أصبحت أشبه بحلب. هم (اللاجئون السوريون) يستحوذون على الوظائف ويساهمون في رفع أسعار الإيجار".

وكانت دراسة أجرتها جامعة بيلجي في إسطنبول قالت إن 75 بالمئة من المواطنين الأتراك يعتقدون أن المجتمعات التركية والسورية لا يمكن أن تعيش في سلام. وقال ما يقرب من ثلثي المستطلعة آراؤهم، بمن فيهم 45 بالمئة من مؤيدي أردوغان، إن سياسات الحكومة تجاه السوريين كانت خاطئة، ما يؤكد صحة التحذيرات التي أطلقها ناشطون في مجال قضايا اللاجئين والإغاثة الإنسانية وسياسيون أوروبيون من أن تركيا ليست بلدا آمنا للاجئين كما كانت تدعي خلال مفاوضاتها مع الأوروبيين.

السيطرة على لبنان مفتاحها في الجبل

محمد قواص
صحافي وكاتب سياسي لبناني

لا يقدم الدرزي في لبنان نفسه بصفته درزيا بل بصفته من "الجبل". والجبل في هذا السياق هو دينه ومذهبه وهويته وحكاية تاريخه في لبنان القديم كما الحديث. والجبل مرجع يتجاوز في معناه الجيولوجي والجغرافي والرمزي أية مرجعيات روحية لطالما التصقت بها بقية طوائف البلد. صحيح أن طوائف عدة تنتمي تاريخيا إلى هذا الجبل، إلا أن أي كلام عن موقف الجبل أو حرب الجبل أو مزاج الجبل هو نظم يراد منه قافية واحدة هي دروز لبنان.

والدرزية السياسية في لبنان هي جنبلاطية منذ ما قبل تشكّل الكيان اللبناني بخطوطه الحالية، وهي للمفارقة جنبلاطية، من حيث أنها تدور حول البيت الجنبلاطي والموقف معه أو منه، حتى لو كانت ولاءات الدروز تتغير، وفق تقسيمات عتيقة مع الأرسلانية، أو وفق موازين قوة الأمر الواقع التي فرضت وئام وهاب قطبا ثالثا يسعى لأن يجد لنفسه حيثية مستحدثة طارئة.

وينظر الدروز في المشرق، في فلسطين والأردن وسوريا، صوب قبلتهم السياسية في "الجبل" في لبنان على الرغم من أن للدروز "جبلا" في سوريا. يشبه ذلك ما للمسيحيين في لبنان من مكانة قيادية تحدد لمسيحيي الشرق بوصلة ووجهة.

ورث وليد جنبلاط عن والده زعامة لم تقبل بالجغرافيا والديمغرافيا. كان كمال جنبلاط سياسيا فيلسوفا رائدا من رواد العروبة وواجهة من واجهات اليسار في العالم. جعل كمال جنبلاط من الحزب التقدمي الاشتراكي ركنا داخل الاشتراكية الدولية وحجر زاوية من أحجار العروبة الصاعدة. وحين قتل الأب اكتشف وليد أن الحزب فاض عن دروزه وأن اغتيال والده كان يهدف إلى اغتيال الجنبلاطية بما تمثله من ورشة عابرة للطوائف والحدود.

> إذا ما تدخل أرسلان لـ«إنقاذ» جنبلاط من غضب حزب الله وغزواته فذلك أن «الموحدين» لن يغفروا له ولحليفه الكبير المسّ بصرح «الجبل»

لم تكن الأرسلانية تستطيع صناعة زعامة ما فوق "الجبل" ولم تكن تطمح إلى ذلك. انتمت الجنبلاطية إلى اليسار وانتمت الأرسلانية إلى اليمين. وحين خاض "الجبل" معاركه ضد اليمين المسيحي كان ذلك يعني أن الجنبلاطية فرضت خيارها. وحين طمح الخصم المسيحي إلى "استعادة" زمام الأمور على كامل البلد كان لا بدّ من كسر هذا "الجبل". فشل الخصم بنسخة "القوات" أو نسخة ميشال عون. كان ذلك الفشل إعلان هزيمة قاد حكما إلى توقيعه في الطائف.

السيطرة على لبنان مفتاحها في الجبل. تاريخ لبنان يروي أن كل القوى الخارجية التي غزت البلد كانت تتعامل مع الجبل بصفته تحديا وجب إخضاعه أو مداراته. أهل الداخل فهموا ذلك متأخرين. كان يجب العبور من خلال حروب أهلية حتى يُفهم أن الجبل أصل وليس هامشا في الحكاية اللبنانية. ولأنه أصل سعت العونية لإعادة الوصل مع هذه المنطقة لعل منها يتم التمكن من السيطرة على البلد. حجَّ جبران باسيل إلى الجبل لم يكن بداية. البداية سابقة تعود إلى إستراتيجية الخصوم في تفكيك ذلك الجبل من داخله. بدا أن اغتيال كمال جنبلاط عام 1977 كان منطلقا لحلقات مترابطة هدفها تجويف الجنبلاطية أو جعلها مدجّنة يتم التلاعب بها في المشهد الكلي للجبل.

تمكنت الوصاية السورية من نفخ قيادات ومنحها امتيازات وجعلها جزءا من المشهدين الحكومي والبرلماني، وتمكن حزب الله بعد ذلك من توفير الدعم لشرذمة النسيج السياسي الدرزي في وجه الجنبلاطية. قدم هجوم 7 أيار (2008) الذي شنه حزب الله (على الجبل أيضا) نموذجا للحدود التي يمكن أن تتطلبها إزاحة الجنبلاطية. وقدم الحزب مفتاح الحل لحليفه في الجبل طلال أرسلان لتدبير المخارج علّها تحوله إلى زعيم الدروز بلا منازع.

بقي وليد جنبلاط زعيم الدروز. خيضت حروب إلغاء ضده من قبل دمشق وطهران وما زالت تخاض، وما جرى في الأيام الأخيرة هو جزء آخر من تلك الحروب. يعتصم الرجل بجبله ولا شيء آخر غير هذا الجبل. لن تدافع عنه سنية سياسية مأزومة، ولا شيعية سياسية قلقة، ولا مسيحية سياسية مهتزة. ولا يبدو كثيرا أن موسكو وباريس ولندن قد تهتم بسرعة لشأنه. لم يحدث ذلك حين حاصرته قوات حزب الله قبل 11 عاما فلماذا يحدث ذلك الآن؟

يعرف "البيك" حدود اللعب وقواعده. يهادن بإفراط. هكذا فعل بعد 7 أيار. خرج من تحالف 14 آذار، وثبت لاحقا أن لا 14 آذار دون وليد جنبلاط. قرأ جنبلاط آنذاك مشهد العالم يقذف بحقائقه تحت نوافذ منزله المحاصر في بيروت. انقلب برشاقة على نفسه وقَبِل بالحجّ الجديد صوب حزب الله وسّيده. تَغيَّر هذا العالم. زار سعد الحريري دمشق ثم زار بشار الأسد بيروت وبات لبنان أسير مداولات الـ"سينين"، السعودية وسوريا.

حتى في مغادرته التحالف "السيادي" لا أحد اتهم جنبلاط بالخيانة. للرجل سحر خاص في ذاكرة اللبنانيين. أهل الجبل أنفسهم، حتى المناصرون لخصومه، يجدون أن سلامتهم من سلامة بيت المختارة. وإذا ما تدخل أرسلان لـ"إنقاذ" جنبلاط من غضب حزب الله وغزواته، فذلك أن "الموحدين" لن يغفروا له ولحليفه الكبير المسّ بصرح "الجبل" وابن "عامود السما". وربما هذا السحر هو الذي أسس لتلك الليلة التي أعادت الأسبوع الماضي جمع جنبلاط بالحريري في ضيافة نبيه بري.

الدروز جماعة صلبة في راهن لبنان، وهي جماعة عريقة في صناعة ونشوء هذا البلد. يتباهى الدروز بتاريخهم المناهض للاستعمار. وثورة "جبل العرب" بقيادة سلطان باشا الأطرش في سوريا ضد الفرنسيين جزء من فضاء الذاكرة الجمعية الدرزية. وربما ذلك التاريخ ما دفع الجنبلاطية السياسية دون غيرها وبشخص وليد جنبلاط لدعوة دروز فلسطين إلى رفض التجنيد في صفوف الجيش الإسرائيلي. والدروز كل واحدٌ حتى لو اضطروا إلى الانقسام في سوريا وحول سوريا. ففي آخر النهار هناك في المختارة من يجيد لغة الحساب وحياكة المعادلات التي تقي الدروز أنواء تفوق قدرتهم على الصمود.

خسر جبران باسيل معركته الأخيرة في الجبل. ليس بالضرورة أنه سيتوقف عن فتح تلك المعارك طالما هناك من الكبار من يرعى خوضها. ربح وليد جنبلاط المعركة الأخيرة دون يقين من نتائج المعركة الآتية حتما. كان الرجل في الكويت قبل أيام وقبلها مر في باريس ولندن ودق نجله تيمور أبواب موسكو فيما موفدوه يترددون على الرياض. يراقب زعيم الجبل مسار الأزمة الدولية مع إيران دون تعويل كبير على نتائجها.

قبل اغتيال والده كان وليد جنبلاط يهوى السرعة في قيادة الدراجات النارية. أتى إلى السياسة على عجل، وربما علّمته التجارب الموجعة المناورات السريعة المتهورة. بيد أن السنوات خصّبت في عقل الرجل نزوعا نحو التأمل ومقاربة الأمور بعين الفيلسوف.

يغرد جنبلاط وكلما غرّد وألحق التغريدة برسم، اشتغلت الغرف المغلقة على تحليل القول لعل في ذلك إدراكا لما يعرفه ولا يعرفونه.